سيمفونية للوطن

قصة بقلم نيروز مالك

اليس : ... انظري ، لقد ذهبت الشمس .
كريستينا : ستعود مرة اخرى ، وستبقى فترة اطول في المرة القادمة .
اليس : هذا صحيح . فالنهار آخذ في الطول ، والظلال في القصر .
كريستينا : نحن نتحرك نحو النور يا اليس
(سترندبرج ـ عيد الفصح)

الحركة الاولى :

عندما كنت في الصف الرابع الابتدائي ... اذكر صباح ذات يوم . لم تجر الامور في مدرستنا كما تعودنا . انما جرت بشكل آخر لم نعتده سابقا . فلم نر العصي في ايدي الاساتذة . انما حل بينهم حوار اشبه بالهمس محل الصراخ اثناء تخاطبهم . ومحل الغضب ، والنزق ـ وهم يشتمون هذا التلميذ او ذاك ـ شيء من التروي والصبر الغامضين ... الخ . وكالعادة ـ راحت صفوفنا تنتظم الى جانب بعضها في ارتال منسقة . ثم تعالت ايعازات الاستراحة ، والاستعداد بصوت هادىء رخيم . بعدها رأينا تسرب وجوه جديدة من الادارة الى المنصة . وجوه جامدة كالموت . فساد الصمت بيننا ، وبينهم مدة من الزمن . ثم رحل متباطئا عندما «كح» احدهم واستعد لالقاء كلمة ما ...

لا اذكر فحوى الكلمة التي القاها يومها علينا . ولكن الشيء الذي اذكره تماما لهجته ... كانت لهجة تقدير ، واحترام بالغين . تكلم عن شخص بارز ـ اعتقد انه لقبه بـ « وزير الداخلية » فاخبرنا ... ان يدا آثمة مجرمة . قد اغتالته مساء البارحة ـ اي مساء يوم من ايام اوائل عقد الخمسينيات ـ ثم عدد مناقب « وزير الداخلية » وخدماته التي اسداها للوطن . وبتأثير بالغ انهى كلامه بآي الذكر الحكيم : «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا . بل احياء عند ربهم يرزقون» صدق الله العظيم . ثم تراجع الى الوراء . بينما راح احد اساتذتنا ينزل العلم عن ساريته ونحن صامتون دقيقة حداد . ثم امرنا بالانصراف دون ضجة ... واعتبروا ذلك اليوم يوم عطلة لمكانة « الشهيد » لدى الدولة .

كانت فرحتنا كبيرة ، عندما سمعنا بيوم العطلة ، فهرعنا كل الى بيته نعلم اهالينا بالامر ، ونحن نتواثب فرحين .

ولكنا فوجئنا بالقلق ، والاضطراب المرسومين على وجوه اهالينا ـ كان مصدرهما ... خوفهم من بطش الحكومة انتقاما من قاتلي « وزير الداخلية » الذين قيل انهم يسكنون حينا ، او في احد الاحياء المجاورة لنا . ثم سمعنا همسات اهالينا ... ان الكلب ـ كانوا يقصدون وزير الداخلية ـ يستحق ذلك منذ زمن بعيد .. استغربت يومها . وحاولت ان افكر بالامر ، وانا جالس تحت شجرة التوت المزروعة في صحن دارنا الكبيرة ، حيث يتزاحم في كل غرفة من غرفها الصغيرة افراد عائلة لا يقل عددها عن سبعة اطفال ما عدا الوالدين . فلم تمر لحظات على ذلك حتى نسيت الامر كله . فحملت كيسي وخرجت ابتغي اللعب .

نعم . ما زلت اذكر ذلك اليوم بتأثر بالغ نابع من اعتزازي بان في حينا بعضا من ابطال هذا البلد ايضا .

الحركة الثانية :

بدأت تجربتك بشكل ممل اول الامر .. التدريس في الريف . اي القبوع بين جدران غرفة طينية مدة خمسة ايام ، ونصف اليوم ، ثم عودتك في النصف الثاني من اليوم السادس الى المدينة . ومرت الايام ، والاسابيع . فبدأت تعتاد الامر . وراحت نفسك تتأقلم مع المحيط الذي حولك شيئا فشيئا . وتكتشف بعض الجوانب الجديدة في حياتك ... منها :

احتفاء اهل القرية بك اينما حططت .
الاصغاء التام لاحاديثك .
تبادي آباء اطفال القرية بدعوتك الى منازلهم للفطور حينا . او للغداء ، او للعشاء .
وجود فتاة مثل « شمس » .
كل هذا لون حياتك بطابع جديد . رغم خشونته .

« شمس » فتاة تبلغ الخامسة عشرة من العمر . قمحية الشعر المائل الى الاصفرار . جميلة الوجه ، والعينين بشكل لا يوصف . رغم نحافة الوجنتين ، ونحالة الصدر ، والسمال المتقطع ... كانت كتلة من الحركة . لا تقف في مكان ما . تراها تثب كالظبية البرية . دائمة الضحك . سريعة الصمت . وعندما يحاول انسان ما ... اسماعها كلمة ناعمة لم تتعود اذناها على سماع امثالها بعد تغمرك ببسمة مشعة . ثم تفر كطائر صغير ملون . وشعرها القمحي الاصفر يتماوج على ظهرها المضموم برهافة ، ودقة بالغين .

ما اكثر الليالي التي سهرت فيها طويلا ، بعد ان تكون النيران قد

خمدت في الكانون ، حيث لم يبق غير الرماد البارد ، الهش المتكسر وانت تتساءل : « يا لغرابة هذه الفتاة ! » . لم يكن جمالها هو الذي يضفي عليها تلك الصفة ، انما شيء اخر ، شيء يشبه السحر لا يشدها الى عالمنا ... انما الى عالم اسطوري تلفه الالوان وطيات الاخضرار الشفافة ، واشياء اخرى جميلة مجهولة .

وتساءلت مرة اخرى : « هل يكفي ان تضرب ابن المختار الـذي اعترض طريقها حتى يجن بحبها دراويش القرية كلها ، شبابا كانوا ام اطفالا ام عجائز من نساء ، وشيوخا ؟ » .

تذكر كيف كان اهالي القرية ، عندما كانوا يذكرونها في حديث ما ... يذكرونها بشيء من الثقة ، والامل ، والاجلال .. وحتى القدسية اضف الى ذاكرتك تفاصيل الحادث عندما راحت تسرد عليك عملية ضربها لابن المختار بلهجة عذبة . لم تطرق سمعك ابدا ... كان صوتها غائرا رقيقا ، يحمل بين طياته اكثر من اثر يشدك اليه بقوة ، ويأسرك بخيوط ناعمة ناعمة . فلا تحس بشيء من حولك ابدا ، فقط تراها امامك تتحرك .. تضحك .. تطرق خجلة .. ترفع رأسها بكبرياء .. تنظر بصفاء مزيج بالحلم والهدوء .. تركن هنيهة الى الحنان ، ثم تتابع :

« عاد عصرا من المدينة كالديك الرومي . نفش ريشه في صباح اليوم التالي على ارض البيادر ـ ظن لكونه ابن المختار ـ انه يحق له المطلق . فاقترب صباحها مني .وقال : « صباح الخير يا شمس » . ـ« صباح الخير .. » . وظللت اتابع طريقي مع بقية الفتيات اللواتي ضحكن ، وهن يخفين وجوههن بين الزهور ،والورود المنتشرة على ثوابهن فتجرأ واقترب مني ، ثم حاذاني في سيره ، ومد يده الى جرة الماء التي على كتفي . وقال : « دعيها عنك ... » واثناء ذلك تقصد لمس ثديي . فما كان مني الا ان انزلت جرة الماء عن كتفي . وانا اضحك . صفعته بقوة . ثم بصقت في وجهه . ثم شتمت اجداد اجداده .. فسمر في مكانه مذهولا لا يعي ما حدث ، ويده على خده المصفوع . وقبل أن ينتصف النهار . كان قد عاد الى المدينة هربا من العار الذي لحقه .. » .

كانت تحدثك بلا تكلف ، بلا غرور ، كانما تسرد لك امرا عاديا جدا . لقد حاولت اكثر من مرة سؤالها :

« شمس .. ألم تخافي ضربه ، خاصة وابوه مختار للقرية يمكنه وضع كثير من المشاكل في طريق والدك الدرويش الرقيق الحال ؟ » . ولكنك لم تسألها ، لان القرية كلها قد اجابت على تساؤلك على مر الايام . فكان كرههم لمختار ، وغضبهم عليه يبرز لك من بين طيات احاديثهم العابرة عنه . وهم يكحون . ثم يبصقون امامهم . ويبصقون .

الحركة الثالثة :

ماتت « شمس » في صباح مشرق نير .

ولم يصدق الخبر ...

كان السعال قد اشتد عليها ، في ايام الاشهر الثلاثة الاخيرة ، فنوى عودها حتى باتت جلدا على عظم ... ولكنها ظلت محتفظة بملامح جمالها العميق .. بمرحها .. بشاعرية حديثها . ظلت رغم المرض شعلة من الحركة لا تهدأ ، ولا تركن ... كان الطبيب قد طلب من والدها اجراء معاملة لادخالها المصح سريعا . في هذه النقطة ، كان والد شمس يشعر بألم حارق كاو ... لان اجراءات المعاملة يجب ان يصدق عليها المختار ، ويوقع ، ويختم ، وينهي بعض اوراقها .

ماتت « شمس » . ولم يصدق الخبر مرة ثانية ...

كان المختار يراقب تطورات الامر عن كثب ، مبتهجا ، لان ساعة الانتقام للعار الذي الحقته « شمس » بـه وبابنه قـد حـان وقتها . فكان كثيرا ما يسأل والد شمس عن صحتها ، ثم يدعو لهـا بالشفاء العاجـل .

شعر ببرودة الخبر القارسة بعد ان تيفن من صحته تسري فـي أطرافه المثلجة ، وبخدره ...

تنهد والد شمس ، عندما انتهى من سرد أمر المعاملة مع المختار ، فعلق الاخير :

« أنا تحت امرك يا أبا شمس ! » .

قام من فراشه ، وهو لا يعي شيئا مما حوله ، غسل وجهـه ، نشفه بحركة آلية ، ثم نهالك ثانية على الفراش .

مر يوم بعد يوم ، والمختار يتهرب من اجراء المعاملة ، ويعلق :

« أنت تعـرف يا أبا شمس ، انني احاول كل ما في وسعي . ولكن ايام زمان التي كان لنا كلمة مسموعة لدى الحكومة قد راحت ، وولت ... فاليوم لست سوى مختار مسكين . ومثل هذه الامـور لم أعد بقادر عليها » .

ويغرق في التنهد متحسرا على ايام المخترة في ظل عابدين آغا ، وسيادة القايمقام عز الدين بيك ، و ...

لم يقو على الخروج . وقف بالباب ، والزمن الحزين يتابع تدفقه في ذاته . وشمس الساعة السادسة الصباحية تتلألأ فوق المساحات الخضر المحيطة بالقرية . لم يكن بالصباح البارد ، ولا بالدافـىء ... كانت القرية كلها تتجمع مع السواد امام باب والد شمس . فلم يستطع الثبات في مكانه . خرج يبتغي المدرسة .

كان التلاميذ صامتين ، مطرقين . وكان حديثهم همسا ، يحمـل بين طياته حنين الذكريات ، وعذابها .

وقف في باحة المدرسة . ومسح ما حوله بنظرة شاردة أليمة ... جدران المدرسة الطينية . شجرة السرو العتيقة الجذع . العلم المحو الالوان ، الممزق الاطراف . الملفوف على ساريته . قطرات المـاء المتباطئة في تساقطها . ذاته الحزينة المغروزة بحروف الفجيعـة السـوداء .

رفع رأسه الى صفوف التلاميذ ، وأرتالهم تنتظم امامه . تأمل وجوههم المكسوة بحزن غريب رقيق ... ظل في وقفته يحدق في عيونهم الصامتة ، ولسانه مثقل بكلام كثير كثير مبلل بالغضب وبالثـ .....

أشار الى عريف الصفوف المناوب ـ بعـد موت غضب ، وولادة غضب جديد في ذاته ـ أشار له ان يصعد الى مقدمة مبنى المدرسة . وينزل العلم عن ساريته .

استغرب العريف ... ولكنـه هرول لتنفيذ الامر . عندما رأى نظرة حازمة في عيني الاستاذ الغاضب .

صعد السلم الخشبي العتيق ، أنزل العلم بيد غير مدربة عـن الساري الذي بقي عاريا يعاني الوحدة .

اشار الى العريف ان ينتظم مع بقيـة التلاميذ فـي الرتل ، وان يقف الجميع بلا حركة ، او صوت ، مدة دقيقة واحدة .

ومرت الدقيقة بطيئة ... تدفقت خلالها ذكريات قديمة فـي نفسه . بكاؤه ، وهو صغير ... غضبه عندما كان يفقد شيئا عزيزا عليه . أراد أن يقول شيئا ما .. يتكلم فيها عن .. عن .. عن .

وانهت الثواني الاخيرة دقيقة الصمت ، والحداد . ولم يستطع ان يرتب في رأسه الملتهب بفورة الغضب حتى جملـة واحدة . فعصر الدفتر بين يديه . ثم قال بصوت غائر اول الامر :

ـ انصراف . اليوم عطلة ...

ظل التلاميذ في أماكنهم للحظات . ثم استدار كل واحد منهم في مكانه مطرق الرأس . وجر نفسه ... لم يتواثبوا كعادتهم . ساروا متفرقين ، ثم انتظموا في جماعة واحدة . وتسربوا داخل الحـزن ، والنشيج المخيم على دار والد شمس .

حلب

نيروز مالك